

وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ) .. القرآن يربط قوة الإيمان بصناعة الحضارة وحماية الحق



الأربعاء 2 سبتمبر 2026 05:00 م

جعل الله تعالى الحديد نعمة عظيمة وآية كونية تحمل منافع واسعة للبشر، فيه قامت الصناعات وشُيد العمران وجُنعت وسائل الدفاع والحماية وقد خلد القرآن مكانته حين سقى سورة كاملة باسمه، وذكر إنزاله مقروناً بالكتاب والميزان وإقامة العدل بين الناس

وكشف القرآن جانباً آخر من هذه النعمة في قصة نبي الله داوود عليه السلام، إذ ألان الله له الحديد وعلمه صناعة الدروع، فجمع له بين النبوة والملك والعبادة والعلم والعمل وبذلك يقدم القرآن منهجاً يربط الإيمان بالأخذ بأسباب القوة، وعمارة الأرض بالدفاع عن الحق والمقدسات

نعمة سماوية للبشر

إن الحديد من نعم الله تعالى التي سخرها لخدمة الإنسان، ومن الآيات الكونية البديعة التي حملت للبشرية منافع كثيرة عبر تاريخها الطويل، فدخل في البناء والصناعة والزراعة ووسائل النقل وأدوات الحماية والدفاع

ولأهمية هذا العنصر، سميت سورة كاملة في القرآن باسم «الحديد»، وهي السورة الوحيدة التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة للبشر وجاء ذكره في سياق تذكير الناس بفضل الله ونعمه، وارتباط القوة المادية بإقامة العدل ونصرة الحق

قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحديد: 25].

وتجمع الآية بين ثلاثة أركان لبناء الحياة المستقيمة، وهي الكتاب الذي يهدي الإنسان، والميزان الذي يقيم العدل، والحديد الذي يوفر القوة اللازمة لحماية الحق ومنع العدوان فلا يستقيم العمران بالعلم وحده إذا غابت العدالة والقوة التي تحميها

البأس والمنافع

وصف الله تعالى الحديد بأن فيه (بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)، فجمع في كلمات قليلة بين قدرته على الردع والدفاع، وبين منفعه المدنية والصناعية التي لا تكاد تستغني عنها حياة الإنسان

ولا يدعو القرآن إلى امتلاك القوة بغرض الظلم أو الاعتداء، وإنما يربطها بالقسط ونصرة رسل الله بالغيب فالقوة في المنهج الرباني أمانة تضبطها القيم، وتحمي الإنسان والعقيدة والمقدسات، وتصون المجتمع من العدوان والفوضى

كما تشير الآية إلى أن الانتفاع بخيرات الأرض لا يفصل عن المسؤولية، فالإنسان مطالب باكتشاف الموارد وتطوير وسائل استخدامها وتسخيرها في الإصلاح، لا تحويلها إلى أدوات للفساد واستعباد الضعفاء وسلب حقوقهم

فضل الله على داوود

لم يمتن الله بنعمة الحديد على عموم عباده فقط، بل خص نبيه داوود عليه السلام بفضل عظيم، فجمع له بين النبوة والملك والعبادة والعلم والقضاء بالعدل والشجاعة في مواجهة المعتدين

قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) [سبأ: 10].

وقد شمل هذا الفضل إيتاء داوود عليه السلام الزبور وحسن الصوت وتسخير الجبال والطير لتسبح معه، إلى جانب العلم النافع والعمل الصالح وسعة النعمة والقدرة على إصلاح الأمة وإقامة العدل بين الناس

كما أغناه الله عن سؤال الناس بما ألهمه من صناعة الدروع، فكان نبياً عابداً وملكاً عادلاً وصانعاً يأكل من عمل يده وفي ذلك تكريم للعمل المنتج، ودعوة إلى الجمع بين العبادة وإتقان المهنة وخدمة المجتمع

معجزة إلانة الحديد

كان من أعظم ما امتن الله به على داوود عليه السلام قوله تعالى: (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)، فالإلانة هذا المعدن الصلب وتشكيله كانت فضلاً مخصوصاً ومعجزة أجراها الله على يديه

وتحتاج إلانة الحديد في عصرنا إلى أفران وآلات ضخمة وطاقة مرتفعة وعمالة مدربة، ولذلك كان تمكين داوود عليه السلام من تشكيله في زمنه آية ظاهرة تكشف قدرة الله التي لا يعجزها شيء

وقد ذكر المفسرون أن الحديد كان يلين بين يدي داوود عليه السلام كالعجين أو الشمع، فيشكله كيف يشاء من دون حاجة إلى نار أو مطارق، ثم يعود صلباً محكماً صالِحاً لما صنع من أجله

وتبقى كيفية هذه المعجزة من أمور الغيب التي نؤمن بها كما أخبر القرآن، من دون إخضاعها لمقاييس القدرة البشرية المحدودة، فهي فضل من الله شبيه بتسخير الجبال والطير لتؤوب وتسبح مع نبيه الكريم

الخام لا يكفي

إن وجود الحديد وحده لا يحقق المنفعة ما لم يمتلك الإنسان العلم والمهارة اللازمين لتشكيله واستثماره ولذلك جمع فضل الله على داوود عليه السلام بين منحه الحديد وتعليمه كيفية الانتفاع به وصناعة ما يحمي الناس

وتكشف القصة أن بناء الحضارة لا يقوم على امتلاك الموارد وحدها، فقد تملك أمة ثروات كثيرة ثم تعجز عن تحويلها إلى قوة نافعة وإنما تنهض الأمم حين تجمع بين الموارد والعلم والعمل والإدارة الرشيدة والمنهج الأخلاقي

وقد ساعدت هذه النعمة على قيام حضارة جمعت بين المنهج الرباني والتقدم العمراني والصناعي، فلم يكن الإيمان فيها انعزاًلاً عن الحياة، ولم تكن الصناعة منفصلة عن القيم والعدل وخدمة الإنسان

الإيمان وصناعة القوة

يعلّمنا القرآن أن المؤمن لا يكتفي بالدعاء والأمنيات، بل يأخذ بالأسباب ويبحث عن مصادر القوة ويتعلم كيفية استخدامها فاليد المؤمنة مطالبة بالعمل والإنتاج، كما أن القلب المؤمن مطالب بالتوكل على الله وإخلاص النية له

ويحتاج المسلمون إلى امتلاك العلم والصناعة والقدرة على استخراج الثروات وتشكيلها، حتى لا يصبح أمنهم وعمرانهم وقرارهم مرهوناً بغيرهم فالتبعية الصناعية تضعف الأمة، بينما يمنحها الإنتاج القدرة على حماية مصالحها وخدمة رسالتها

ومع ذلك، لا تصبح القوة ربانية بمجرد امتلاك أدواتها، وإنما تكون كذلك حين توظف في حماية العقيدة، والدفاع عن المظلومين، وصيانة المقدسات، وإقامة العدل، وخدمة الإنسان، ومنع العدوان بدل ممارسته

عمارة الأرض بالحق

يحمل قول الله تعالى: (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) إشارة واضحة إلى أهمية اكتشاف موارد الأرض وتطوير وسائل الانتفاع بها، لأن عمارتها أمانة تستدعي العلم والتخطيط والعمل المتقن، ولا تتحقق بالكسل أو العجز

كما يكشف اقتران الحديد بالكتاب والميزان أن الحضارة المنشودة لا تقوم على القوة المجردة، بل على هداية تضبط اتجاهها وعدالة تمنع انحرافها فالعلم من دون أخلاق قد يتحول إلى أداة خراب، والقوة من دون عدل تصبح طغياناً

وهكذا يقدم الحديد درساً دعوياً وحضارياً متكاملًا، يدعو المؤمن إلى شكر نعم الله، وإتقان العمل، وطلب العلم، وبناء القوة النافعة، وتسخير موارد الأرض لخدمة الإنسانية والدفاع عن الحق وإقامة القسط بين الناس